البلاغة القرآنية فوق النقد والتجريح

للدكتور/عبد الفتاح محمد محمد سلامه

من نافلة القول: أن القرآن الكريم معجز بنظمه وبلاغته في الدرجة الأولى، فإن هذه قضية فرغ منها العلماء وأقطاب البيان، وحسمها المتمهرون في صناعة الكلام!!!!! وليس من ريب أن كل عاقل حصيف يتذوق طعوم الأساليب وفنونها، ويقف على غنها وسمينها، لا مندوحة له من الاعتراف بتلك الحقيقة، ثم تسجيلها، إن بلسان الحال، وإن بلسان المقال:

شهد الأنام بفضله حتى العدا
والفضل ما شهدت به الأعداء

ولو كان في بلاغة القرآن مغمز يؤخذ عليه، لتلقفه العرب الأولون الذين كانوا يحلقون في شأو من البيان منيع، وحصن من البلاغة رفيع... ولكن قال قائلهم بعد أن صافح الذكر الحكيم سمعه، وداعب حسه:

«والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما سمعت مثله قط، فما هو من كلام

الانس، ولا هو من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه..»

وأحيانا تكون الشمس طالعة مشرقة، متوهجة متألقة، ثم يأتي إنسان أرمد العينين، فيلغي وجودها، ويمسح من الحياة دورها:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبمثل هذه النوعيات الفجة التي تنكر الحقائق بعد تبلجها، وإسفارها، وتلألئها، لمرض في النفوس، أو غشاوة في العيون.. صدم القرآن!!

لقد انبرت جماعة حظها من اللغة قليل، ورصيدها من البلاغة هزيل، وأثارت حول النظم القرآني شبهات، وما هي بشبهات، ولكنها أقاويل، الباعث عليها جهل فاضح بأساليب التنزيل:

فهم يقولون: إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها، لوجود أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أهل المعرفة باللغة:

كقوله تعالى:«**فأكله الذئب**»..يوسف/ ١٧

..قالوا: الفصيح المختار في معناه: فافترسه الذئب.. لأن الأكل يشارك فيه الانسان كل أنواع الحيوان!!!

وكقوله تعالى:«**هلك عني سلطانيه**»..الحاقة/ ٢٩..

قالوا: الهلاك في الأعيان والأشخاص، تقول: هلك زيد، ولا تقول: هلك جاهه أو سلطانه، وإنما تقول: ذهب سلطانه..

وكقوله تعالى:«**والذين هم للزكاة فاعلون**..».. المؤمنون/ ٤

والأبلغ أن يقال: زكي الرجل ماله، ولا يقال: فعل الزكاة..

ومن ذلك قوله تعالى:«**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم**».. الحج/ ٢٥

قالوا: لا موضع لزيادة الباء في «بإلحاد»، فلو قيل: «إلحادا بظلم».. لكان أحسن!!!

واعترضوا على قوله تعالى:«**كما أخرجك ربك من بيتك بالحق و إن فريقا من المؤمنين لكارهون**..».. الأنفال/ ٥.. عقب قوله:«**أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**»الأنفال/ ٤

قالوا: فكيف يتسق هذا مع ذاك؟؟

واعترضوا أيضا في الحذف فقالوا: إن حذف جواب الشرط في قوله تعالى:«**ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أو كلم به**

الموتى..».. الرعد / ٣١... تبتير للكلام وإبطال لفائدته..

تلك مجموعة من الشبهات أثاروها، وتصوروا أنهم بها قد أصبحوا على شيء، وما دروا أن مثلهم مع البلاغة القرآنية كما عبر الشاعر حين قال:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ

شبهات باطلة:

إن نظرة سديدة إلى هذه الشبهات ـ إن صحت تسميتها بالشبهات ـ تجعلها تتهاوى الواحدة تلو الأخرى:

فأما شبهتهم في قوله تعالى:«**فأكله الذئب**» فإن الافتراس الذي يتوهمونه معناه في فعل السبع القتل فقط، وأصل الفرس: دق العنق.. والقوم قد ادعوا أن الذئب قد أكله تماما، وأتى على جميع أعضائه وجسده، حتى لا تكون لأبيهم مطالبة بشيء من جسده، (أي جسد يوسف)... لأجل هذا كان قوله تعالى«**فأكله الذئب**»أبلغ من أي تعبير آخر يزعمونه أو يفترونه..

ولذلك شاهد من الشعر العربي

قال العباس بن مرداس:

أبا خراشة أما أنت ذانفر
فإن قومي لم تأكلهم الضبع

ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عتبة بن أبي لهب قائلا:

«اللهم سلط عليه كلبا من كلابك».. ثم كان في تجارة إلى الشام، وطاف بهم أسد في أثناء الطريق فجعل عتبة يقول: أكلني السبع. فلما كان في بعض الليل علا عليه الأسد ففدغ رأسه...

وأما شبهتهم في قوله تعالى:«**هلك عني سلطانيه**»وزعمهم أن الهلاك لا يستعمل إلا في تلف الأعيان.. فإنهم مازادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه..

وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة كقوله تعالى:«**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار**».. يس / ٣٧..

والسلخ هنا مستعار لاخراج النهار من ظلمة الليل، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة..«فهلك» مستعار لانتهى أو ذهب..

وعلى هذا النحو قوله تعالى:«**هلك عني سلطانيه**».. وذلك أن الذهاب قد

يكون على مراصدة العودة، ولكن مع الهلاك لا يكون بقيا ولا رُجْعى.. ومن جهة ثانية فقد قيل: إن معنى السلطان هنا الحجة والبرهان!!!

وأما شبهتهم في قوله تعالى:«**والذين هم للزكاة فاعلون**».. وتفضيلهم لألفاظ الأداء والايتاء والاعطاء ونحوها... على لفظ «فاعلون».. فيمكن القول: إن هذه العبارات التي أرادوها لا تفيد أكثر من مجرد الاخبار بأدائها..

أما مراد الآية: فأكثر من هذا، ذلك لأن لفظ «فاعلون» يفيد الاخبار بالمبالغة في أدائها، والمواظبة عليه، حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم، فهم للزكاة فاعلون، وبهذا الفعل يعرفون... وهذا لا يستفاد إلا من عبارة القرآن، فهي أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا الموطن..

ومن جهة أخرى فقد قيل: إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح، وعليه يكون المعنى: والذين هم للأعمال الصالحة فاعلون!!!

وأما قوله تعالى:«**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم**».. ودخول الحرّف فيه: فإن حرف الباء كثيرا ما يوجد في كلام العرب الأول الذي نزل القرآن به، وإن ندر وجوده وعزّ في كلام المتأخرين..

وقد كان القرشيون حريصين على أن يجدوا في القرآن مطعنا، ولو كانت هذه الباء مغمزا لغويا لما سكتوا، ولأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ولكنهم لم يفعلوا، فدل ذلك على بلاغة وضعها في مقامها الذي وردت فيه..

فهذه الباء في قوله «**بإلحاد بظلم**»: قد قيل فيها: إن الباء زائدة، والمعنى: ومن يرد فيه إلحادا بظلم... والباء قد تزاد في مواضع من الكلام ولا يتغير بذلك المعنى... كقول الشاعر:

نحن بني ضبة أصحاب الفلج
نضرب بالسيوف ونرجو بالفرج

والتقدير: ونرجو الفرج!!!

على أنه ليس بالضرورة أن تكون الباء ـ هنا ـ زائدة، فقد يراد منها معنى الملابسة، ويصبح المعنى: ومن يتلبس فعله بإلحادٍ بظلم، أي بسبب ظلم....

وأما قوله تعالى:**كما أخرجك ربك من بيتك بالحق و إن فريقا من المؤمنين لكارهون**..».. فقد كان ذلك يوم بدر حين أراد المسلمون ان يستولوا على أموال قريش القادمة من الشام لتكون تأديبا لهم، وتعويضا للمسلمين عما حل بهم ولكنها فلتت، وخرجت قريش لتأديب المسلمين، فخرج المسلمون للقائهم، وكان البعض كارهين لقاء العدو، ثم اختلف بعضهم في الأنفال، بعد أن من الله عليهم بالنصر!!!

ومن ثم فقد أمرهم الله أن يطيعوا نبيه الكريم، وألا يعترضوا عليه فيما

يفعله إن كانوا مؤمنين..

وقد أشارت الآيات إلى أن كراهتهم لما فعله الرسول في الغنائم ككراهتهم للقتال في أول الأمر..

وقيل: إن «كما» صفة لفعل مضمر وإن تأويله: افعل في الغنائم كما فعلت في الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك!!!

وأما ما افتروه على الحذف والاختصار كما تراه مثلا في قوله تعالى:«**ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى**»الرعد/ ٣١

فإن الإيجاز في هذا الموطن هو الملائم والمناسب، لأن حذف ما يستغنى عنه الكلام نوع من أنواع البلاغة... وإنما حسن حذف الجواب في الآية الكريمة السابقة، لأن الشرط فيها يدل على ذلك الجواب المحذوف والتقدير: لكان ذلك القرآن!!!

يقول الخطابي: والمعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به..

والتقدير: لكان هذا القرآن.. وقد قيل: إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب، ولو ذكر الجواب لكان مقصورا على هذا الوجه الذي تناوله الذكر!!!

ومثل ذلك قوله تعالى:«**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها**..».. الزمر/ ٧٣..

فإن المعنى: كأنه قيل: لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذي لا انقطاع له ولا تكدير فيه...

والتكرار في ذلك مثل الحذف: يستحسن ويمدح في الأمور الهامة التي تعظم العناية بها، ويخاف بتركه الوقوع في الغلط والنسيان!!!

وأنت قد تقول لعامل: عجل عجل... ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص:

هلا سألت جموع كندة
يوم ولوا أين أينا

وقد بين الله السبب الذي من أجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال سبحانه:

«**ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون**».. القصص/ ٥١ ..

وقال:«**وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**».. طه/ ١١٣

تلك لمحات من بلاغة القرآن، تلقم من ينكرونها الأحجار!!!